# الاستسلام للشرع

(وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)[النساء:١٢٥]، والخُلَّةُ هِي أَعْلَى أَنْوَاعِ المَحَبَّةِ ولا تَكُونُ فِي البَشرِ إلا لِشَخصٍ وَاحدٍ فَقَط، وإنَّمَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا؛ لِأَنَّ مَحَبَّتَهُ تَتَخَلَّلُ الْقَلْبَ فَلَا تَدَعُ فِيهِ خَلَلًا إِلَّا مَلَأَتْهُ.

مكثَ الخليلُ إبراهيمُ -عليه السَّلامُ- طويلاً لم يُرزقْ وَلداً، ثُمَّ دعا ربَّه -عزَّ وجلَّ- أن يَهبَه ولداً ينفعُه في حياتِه وبعدَ مماتِه، فقالَ: (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)[الصافات:١٠٠]، فاستجابَ اللهُ -تعالى- له، وجاءَتهُ البُشارةُ بإسماعيلَ -عليه السَّلامُ- (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) [الصافات: ١٠١] ؛ فما أجملَها من بُشارةٍ بغلامٍ ذكرٍ، وحليمٌ ذو خُلُقٍ وصَبرٍ.

وعندما وُلدَ الغُلامُ، أحبَّه أبوهُ محبةً شديدةً، فكانَ لا بُدَّ من الاختبارِ: هل محبةُ الولدِ زاحَمتْ محبةَ اللهِ -تعالى- في قلبِ الخليلِ؟ فجاءَ الاختبارُ الأولُ:

أُمرَ إبراهيمُ بتركِ ابنِه وزوجتِه هاجرَ في مكانٍ قَفرٍ ليسَ فيه ماءٌ ولا أحدٌ، فتَوجَّهَ -عليه السَّلامُ- مع زوجِه وابنِه الرَّضيعِ إلى مَكةَ؛ تنفيذاً لأمرِ اللهِ -تعالى-، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ مَكانِ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: أَاللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ.

ما أعظمَ هذا التَّسليمَ عندَ اللهِ -تعالى-، شَيخٌ كَبيرٌ مُهاجرٌ إلى اللهِ -تعالى- من الأرضِ والوَطنِ، مَقطوعٌ من الأهلِ والقَرابةِ، جاءَه غلامٌ حليمٌ بعدَ طُولِ عُمرٍ وإلحاحِ دُعاءٍ، وها هو يضعُ ابنَه وزوجتَه الضُّعفاءَ في مكانٍ ليسَ فيه ماءٌ ولا إنسٌ ولا أحدٌ، وليسَ بينَهم وبينَ الموتِ إلا أن ينفدَ ما في الجرابِ من تمرٍ وما في السِّقاءِ من ماءٍ، لا لشيءٍ إلا لأنَّ اللهِ -تعالى- أمرَه بذلكَ، ثُمَّ ماذا كانتْ نَتيجةُ هذا التَّسليمِ؟:

فجَّرَ اللهُ -تعالى- من تحتِ قدميِّ الغلامِ عيناً مباركةً إلى يومِ القيامةِ، وكانَ هو من بنى الكعبةَ بيتَ اللهِ -تعالى- الذي تهوى إليه أفئدةُ المسلمينَ، وجُعلَ سعيُ هاجرَ بينَ الصَّفا والمروةِ من مناسكِ الحجِّ والعمرةِ تخليداً لذكرِها إلى يومِ القيامةِ، وبعثَ اللهُ في هذا الوادي من نسلِه خاتمَ وخيرَ الرُّسلِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

ثُمَّ لما كَبُرَ الغلامُ، جاءَ الاختبارُ الثَّاني:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ)[الصافات:١٠٢]، وبَلغَ سِنّاً يَكونُ في الغَالبِ، أَحبُّ ما يَكونُ لوالديهِ، قد ذَهبتْ مَشقتُه، وأَقبلتْ منفعتُه، وعادةُ قلوبِ الآباءِ أن تتعلَّقَ بأبنائهم في مِثلِ هذه السِّنِ، كيفَ

بقلبِ الأبِّ الرحيمِ، بابنِه الوحيدِ الحليمِ، فأرادَ اللهُ -تعالى- أن يختبرَ قلبَ خليلِه، فأرسلَ إليه رؤيا في المنامِ، ورؤيا الأنبياءِ حقٌّ -عليهم السَّلامُ-.

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)، رأى الرُّؤيا فما ناقشَ في أمرِ اللهِ العليمِ الخبيرِ، ولم يسألْ عن الحكمةِ من ذَبحِ ولدِه الصَّغيرِ، ولم يعترضْ: لماذا يجبُ أن يذبحَه بيدِه وهو الأبُ الكسيرُ؟، ولا قالَ كيفَ سيكونُ حالُ أمِّه صاحبةِ القلبِ الكبيرِ؟، وحُقَّ لمثلِ هذا أن يكونَ خليلُ اللهِ -تعالى- السَّميعِ البصيرِ.

(فَانظُرْ مَاذَا تَرَى)، ليسَ استشارةً، وإنما أخبرَه ليتهيأَ لأمرِ اللهِ -تعالى- الذي لا بُدَّ منه، وليختبرَ صبرَه وطاعتَه للهِ ولأبيه، وليتدرَّبَ على التَّسليمِ لأمرِ اللهِ -تعالى-.

فماذا كانَ جوابُ الابنِ؟، ما هو جوابُ الشَّابِ الصَّغيرِ الذي يُحبُ الحياةَ؟، ما هو موقفُ غلامٍ صغيرٍ وهو يُخبرُ أنَّه سيُذبحُ بيدِ أبيه؟، وماذا عسى أن يكونَ الذَّنبُ الذي اقترفَه فاستحقَّ هذه العقوبةَ؟. (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)، اللهُ أكبرُ .. كأنَّه يقولُ: يا أبتِ هذا أمرٌ من اللهِ -تعالى-، ليسَ لي ولا لكَ فيه نظرٌ، وإنما هو المبادرةُ بالفعلِ واحتسابُ الأجرِ، (سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)؛ فلن أزيدَ حُزنَك بالجزعِ والبُكاءِ، ولا التَّوسلِ إليكَ بعدمِ الذَّبحِ والدُّعاءِ، ولأنَّ الأمرَ أمرٌ عصيبٌ، قالَ: (إِن شَاءَ اللَّهُ)، لأنَّه لا ثباتَ في مِثلِ هذه المواقفِ إلا بتثبيتِ اللهِ -تعالى-.

عجباً لهؤلاءِ .. لم يسألْ الأبُ عن الحكمةِ، ولم يسألْ الابنُ عن الجريمةِ، وهو ما عبَّرَ عنه القرآنُ بكلمتينِ: (فَلَمَّا أَسْلَمَا)[الصافات:١٠٣]، كلمتانِ فيهما الرِّضا والطَّاعةُ والثِّقةُ والطُمأنينةُ والانقيادُ، فهكذا يكونُ كمالُ الاستسلامِ؛ فهل نحنُ إلا عبيدٌ لذي الجلالِ والإكرامِ.

كم من أبٍّ قد انهارَتْ قُواهُ لأنَّ ابناً من أبنائهِ قد ماتَ في حادثٍ!، وكم من أبٍّ قد كساهُ الحُزنِ لأنَّ ابنَه قُد قُتلَ بطريقةٍ ما!؛ فكيفَ لو قيلَ لمثلِ هؤلاءِ: اذبحْ ابنَك بيدكَ؟!.

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)، أضجعَه على وجهِه؛ لئلا ينظرَ إليه وقتَ الذَّبحِ، وحتى لا تأخذه رأفةُ الأبوَّةِ، فوضَعَ السِّكينَ ليَشرعَ في الذَّبحِ، ولكَ أن تتخيلَ حالَهما في تلكَ اللَّحظةِ من البَلاءِ، وإذا بالنِّداءِ الرَّحيمِ يأتي من السَّماءِ، (وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)[الصافات:١٠٤-١٠٥]، فقد حصلَ المقصودُ من هذا الاختبارِ، وظهرَ صِدقُ تسليمِكَ للعزيزِ الجبَّارِ؛ فليسَ المقصودُ هو سَفكُ الدِّماءِ، وقتلُ النَّفسِ، بل العزمُ الصَّادقُ على تنفيذِ أمرِ اللهِ -تعالى- والاستسلامُ لأمرِه، وقد حصلَ ذلكَ كلُّه، ولقد كانَ هذا من أعظمِ الاختباراتِ لإبراهيمَ؛ كما قالَ -تعالى-: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)[الصافات:١٠٦].

ثُمَّ قالَ -تعالى-: (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)[الصافات:١٠٧]، ففداهُ اللهُ -تعالى- بذِبحٍ من الغنمِ عظيمٍ، (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)[الصافات:١٠٨]، فأصبحَ سُنَّةً وقُربةً إلى يوم يبعثون، وهيَ سُنةُ الأضحيةِ التي تكونُ في عيدِ الأضحى ويتقرَّبُ بها المسلمونَ إلى ربِّهم -تعالى- في كلِ عامٍ، ذِكرى لموقفٍ عظيمٍ من مواقفِ الاستسلامِ.

@@ استسلام أم نبي الله موسى عليه السلام والنجاة:

**إخوة الإسلام، تلك صورة أخرى من صور الاستسلام لأمر وقضاء رب الأرض والسماء ... إن بطلة تلك القصة هي أم موسى عليه السلام لما أوحى الله إليها بإلقاء موسى عليه السلام وهو طفل حديث الولاة في ذلك اليم، فما وهنت وما ترددت؛ قال الله عز وجل :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُم مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَم وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنا رَادوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ *فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًا وَحَزَنًا إِن فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ *وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص:٧-٩.[**

**فكانت نتيجة الاستسلام أن رد الله عليها موسى عليه السلام واصطفاه، وجعله كليمه ونجيَّه تبارك وتعالى.**

@ ((عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- قال: لمّا نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (الشعراء/ ٢١٤) صعد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على الصّفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عديّ» لبطون قريش حتّى اجتمعوا، فجعل الرّجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ؟». قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلّا صدقا. قال: «فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ* ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (المسد/ ١ - ٢) *

@ وهل الدِّينُ إلا الاستسلامَ؟، يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ -رحمَه اللهُ تعالى- مُعرِّفًا الإسلامَ: "هو الاستسلامُ للهِ لا لغيرِه، بأنْ تكونَ العبادةُ والطَّاعةُ له والذِّلُّ له سبحانَه، وهذه حقيقةُ لا إلهَ إلا اللهُ"، وصدقَ رحمَه اللهُ، فقد قالَ -تعالى-: (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)[لقمان:٢٢].

{ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}

وتأملوا هذه الآيةَ: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا)[النساء:٦٥]؛ إذاً التَّسليمُ الخالصُ للهِ -تعالى- في أقدارِه وأحكامِه، الذي لا يجدُ الإنسانُ في قلبِه مثقالَ ذرةٍ من حرجٍ، هو الأساسُ الذي يُبنى عليه

الإيمانُ الصَّادقُ، ولذلكَ قالَ الطَّحاويُّ -رحمَه اللهُ- في عقيدتِه: "ولا تَثبتُ قَدمُ الإسلامِ إلا عَلَى ظَهرِ التَّسليمِ والاستسلامِ".

والطاعة والاستسلام لأمر الله، حققها الصحابة – رضوان الله عليهم-، فملكهم الله الدنيا، وفتح عليهم كنوز الأرض ، ومن صور الطاعة والاستسلام في حياة الصحابة الكرام @ لما نزلت آية تحريم الخمر، (فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) المائد:٩١ ، قام الصحابة على الفور ، وكسروا آنية الخمر ، فجرت في السكك والطرقات .

@ ولما نزلت آية الحجاب، حققوا معنى الاستسلام والطاعة ، ففي صحيح البخاري : (فعَنْ عَائِشَةَ – رضى الله عنها – قَالَتْ يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ ، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ( وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ) شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهِ )

@ لما نزلت الآية بتحويل القبلة، وكانت القبلة إلى الشمال، إلى بيت المقدس، والمسلمون بالمدينة، والتحويل إلى الجنوب، إلى مكة، جاء رجل ممن صلى مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في مسجده ، فشهد بالله أن القبلة قد حولت، فماذا فعل هؤلاء
المسلمون؟ استداروا في الصلاة فتحولوا كما هم من الشمال إلى الجنوب، من بيت المقدس إلى الكعبة.

@ ومن صور الطاعة والاستسلام في حياة الصحابة الكرام : ما رواه أبو داود، (عَنْ جَابِرٍ قَالَ لَمَّا اسْتَوَى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَالَ « اجْلِسُوا ». فَسَمِعَ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَجَلَسَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَرَآهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ « تَعَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ ».

@ روى مسلم (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ :« يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ ». فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- خُذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ. قَالَ لاَ وَاللَّهِ لاَ آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ) .

هكذا كانت الطاعة والاستسلام علامة واضحة، وسمة بارزة في ذلك المجتمع الاسلامي الأول ، والذي طبق الاسلام تطبيقا عمليا على أرض الواقع ، فكانت لهم الرفعة والفوز ، ورضوان من الله أكبر .